الكاتب: أ/ شهرزاد واضح
طالبة دكتوراه _ جامعة سطيف محمد امين دباغين- سطيف.
البريد الالكتروني: chahraouadah92@gmail.com

عنوان المقال: قضايا الهوية الوطنية في كتابات النخبة الجزائرية(مصطفى بن خوجة انموذجا).

تاريخ الارسال: 2019/05/07 تاريخ القبول:2019/08/13 تاريخ النشر:2019/09/30

قضايا الهوية الوطنية في كتابات النخبة الجزائرية (مصطفى بن الخوجة أنموذجا)

National Identity Issues in the Writings of the Algerian Elite -Mustapha Ben El Khudja as a model

ملخص:

تزامن الإنتاج الفكري لمصطفى بن الخوجة الجزائري مع اشتداد وطأة السياسات الكولونيالية الرامية لطمس معالم الهوية الوطنية وتدجين المجتمع الجزائري، وعلى الرغم من أنه تقلده عدّة مناصب إدارية في الإدارة الفرنسية إلا أنه حاول أن يحضّ الجزائريين على التمسك بدعائم الشخصية الجزائرية. ونحن هنا في هذا المقال نسعى لإبراز الدور الكبير الذي لعبه بن الخوجة في معركة تنوير العقول، كما حاولنا لفت الانتباه لمنتوجه الفكري الضخم من خلال استعراض نماذج من قضايا المجتمع الجزائري أواخر القرن 19م وبداية القرن20م في ضوء آراءه وكتاباته. ويمكننا اعتبار بن الخوجة من المصلحين الأوائل الذين تفطنوا لمطامع الإدارة الفرنسية، لذلك نجده يستعمل الخطاب اللين مع الفرنسيين لتجنب الصدام المباشر مع السلطة، خاصة في ظل الرقابة المفروضة على أقلام دعاة الإصلاح داخليا وخارجيا على حد السواء. فالملاحظ هنا أنه اتبع منهج إصلاح المجتمع دون جذب انتباه الإدارة الفرنسية أو إزعاجها. لأنه يعلم أن حظر أفكاره بمثابة وأد لمعالم الهزية الوطنية الجزائرية بأبعادها العربية الإسلامية.

الكلمات المفتاحية: محمد بن مصطفى بن الخوجة، النخبة الجزائرية،الهوية الوطنية، المجتمع الجزائري، المشروع الكولونيالي.

Abstract:

The intellectual production of Mustafa Ben al-Khuja coincided with the intensification of colonial policies aimed at obliterating the national identity and domestication of Algerian society. Though he held several administrative positions in the French administration, he tried to incite Algerians to adhere to the pillars of portraying Algerian personality. Here in this article, we seek to highlight the great role played by Ben al-Khuja in the battle to enlighten the minds. We tried to draw attention to his huge intellectual product by reviewing examples of issues of Algerian society in the late 19th century and the beginning of the 20th century in light of his opinions and writings. We can consider Ben al-Khuja to be one of the first reformers who realized the ambitions of the French administration, so we find him using the soft discourse with the French to avoid direct confrontation with the authority, especially under the control of the pens of the reform advocates both internally and externally. It is noticed that he followed the approach of reforming society without attracting or disturbing the attention of the French administration. This is because he knows that banning his ideas serves as a ban of the features of the Algerian national identity with its Arab-Islamic dimensions.

Keywords :Mohammed Ben Mustafa Ben al Khuja,Algerian elite ,national identity , Algerian society the colonial project

مقدمة:

مارست السلطة الاستعمارية عددا من السياسات الرامية لطمس معالم الهوية الوطنية، هذا ما استدعى ظهور نخبة مثقفة للرد على هذه الممارسات من خلال تثبيت الجزائريين في محيطهم العربي الإسلامي الذي لطالما حاولت الإدارة الفرنسية عزلهم عنه.

ففي كل فترة يظهر مجموعة من المصلحون والمثقفون الذين حملوا همّ الأمة التي كادت أن تندثر في خضم المتغيرات السياسية، الإدارية، الاقتصادية والثقافية التي فرضتها عليهم الظروف. فهم إذن كانوا كمصابيح تنير على الجزائريين دروبهم. ونظرا لأهمية هؤلاء في حفظ التوازن في المجتمع ارتأينا أن يكون موضوع ورقتنا البحثية هذه يتمحور حول إسهامات النخبة الجزائرية في الحفاظ على الهوية الوطنية ممثلة في شخص العلامة مصطفى بن الخوجة، فهذا الأخير كان له دور كبير جدا في الرد على السياسات الفرنسية والحفاظ على الأصول الجزائرية. وعليه كانت إشكاليتنا كالآتي: من هو مصطفى بن الخوجة؟ إلى أي مدى ساهم في الحفاظ على الهوية الوطنية؟ وما هي مجالات اهتمامه؟.

1- مفهوم النخبة الجزائرية وأقسامها:

ظهر هذا المصطلح في الجزائر مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرون، يختلف مفهوم النخبة الجزائرية باختلاف اتجاهاتها ونظرتها للمستعمر:

فهناك من يرى أن النخبة متمثلة في أولائك المثقفون ثقافة فرنسية (النخبة المفرنسة) ونالوا تحصيلهم العلمي في المدارس الفرنسية، دعاة الإدماج. وقد زاد نشاطهم في فترة ما بين الحربين (1919- 1939م)، وقد أظهر هؤلاء العداء للمبادئ التي يدعوا إليها التيار المعرب واتهموهم بالرجعية[1].

لذلك اعتبرت هذه الفئة من النخبة منسلخون من ثقافتهم الأم(الانتماء للثقافة العربية الإسلامية)، التي تنازلوا عنها في سبيل تبنيهم للأفكار الغربية والثقافة الأوروبية[2].

أما الاتجاه الثاني من النخبة الجزائرية فتمثل في النخبة المعربة(كتلة المحافظين)، هذا التيار جذب له معظم المثقفون الجزائريون، وأهم أهدافهم الحفاظ على الأحوال الشخصية للجزائريين وعدم الذوبان التام في الآخر[3]. لقد أظهر هذا التيار النخبوي رفضه القاطع لقضية التجنيس والتجنيد في صفوف جيش فرنسا. وكان تكوينهم العلمي في الكتاتيب والمساجد والمدارس المزدوجة التعليم (المدارس العربية- الفرنسية)[4] ويعتبر أنموذج دراستنا مصطفى بن الخوجة من أهم أقطاب كتلة المحافظين.

وبين هذا وذاك ظهر تيار ثالث وسطي يضم أصحاب الثقافة المزدوجة(نخبة عربية فرنسية)، تدعوا إلى الأخذ من الثقافة الغربية ومواكبة روح العصر دون التخلي عن مقومات الهوية الوطنية للجزائريين. كما سعى هذا الاتجاه دوما للتوفيق بين التيارين المفرنس والمحافظ الدائمي الصراع[5].

2- مفهوم الهوية الوطنية:

تعتبر قضية الهوية من أكثر القضايا التي أثارت الجدل في أوساط النخبة الوطنية، حيث أن صدمة الاستعمار قسّمت الجزائريين إلى موقفين متباينين، بين منبهر بالثقافة الغربية ومتمسك بالثقافة العربية. هذا ما أدى إلى تبلور الوعي الوطني بين فئات المجتمع الجزائري الذين هبوا للدفاع عن عروبة الجزائر وإسلامها. وقد كان هذا الشعور بالقومية والإحساس بالخطر من تبعات السياسة الفرنسية أهم دافع لميلاد الحركة الوطنية والصحافة العربية والنقابات العمالية. فإشكالية الهوية أفرزت الكثير من الاختلاف بين النسق الفكري لممثلي أطياف الحركة الوطنية وأظهرت للسطح المشاكل العميقة التي صدعت جدار الوحدة الوطنية[6].

وعلى سبيل المثال يظهر فرحات عباس ويحصر هويته بالذوبان الكامل في الآخر من خلال مقولته الشهيرة "أنا فرنسا"، فهذه العبارة تُظهر جليا موقف فرحات عباس من الهوية الوطنية. وبعد هذا القول جاءه الرد مباشرة من رئيس الكتلة الإصلاحية آنذاك الشيخ عبد الحميد بن باديس حيث ردّ عليه الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا، ولا تريد أن تكون فرنسا، ولا تستطيع أن تكون فرنسا حتى لو أرادت، بل هي بعيدة عن فرنسا كل البعد[7].

ومنه فالاختلاف في مفهوم الهوية الوطنية راجع إلى الاختلاف في التوجهات السياسية والفكرية لمنتجي الخطاب.

3-مصطفى بن الخوجة، ترجمته وظائفه وأهم أعماله:

3-أ- ترجمته:

هو محمد بن محمد بن مصطفى بن بكير بن الخوجة المدعو "مصطفى بن الخوجة" ، ولد بمدينة الجزائر عام 1282هـ/ 1865م، ولد في عائلة علم وجاه؛ فهو من بيت حسن ومصطفى باشا وجده لأبيه من نسل الشيخ محمد بن جدعون لذلك عاش ميسور الحال[8]. دخل الكتاب وهو ابن الخمس سنوات، وأخذ العلم على المدرس محمود حفيد الشيخ علي بن الأمين، كما أخذ العلم على يد الفقيه الحنفي علي بن سماية، ودرس كتاب "الجوهرة" على يد الشيخ محمد السعيد بن الزكري، الذي أجازه من المسجد الأعظم[9].

وعليه فقد كان تعليمه دينيا محض وأخذ عن أشهر علماء وفقهاء عصره، لكن الملاحظ عليه أنه لم ينتقل بين الحواضر العلمية للنهل منها وإنما انحصر نشاطه في مدينة الجزائر فقط على الرغم من وجود مساجد وزوايا ذائعة الصيت وذات وزن ثقيل في قسنطينة وتلمسان إلا أنه لم يلتحق بها. كما أنه لم يرتحل إلى مراكز الإشعاع العلمي في الدول المجاورة كالزيتونة في تونس، والأزهر في مصر والقرويين في المغرب الأقصى. وهذا راجع للرقابة الشديدة التي فرضتها سلطة الاحتلال على الحركة الثقافية بالجزائر، لذلك يمكننا القول أن بن الخوجة كان تكوينه عصاميا[10].

3- ب- وظائفه:

نظرا لنبوغه في العلوم النقلية واللغة العربية وآدابها تقلّد العديد من المناصب وتنقل بين الوظائف المدنية والإدارية. عيّن كشيخ لتحفيظ القرآن بالمسجد الأعظم عام 1880م، وفي 1884 انتقل إلى المسجد الجديد. وعام 1886م عمل كموظف في الإدارة الفرنسية مما أكسبه الخبرة في التعامل مع القضايا القانونية[11]. وبعد ذلك انتقل للعمل في مجال الصحافة من خلال " جريدة المبشر" الحكومية مابين 1895- 1901م، إضافة إلى تدريسه في مسجد السفير، ونشرت له مقالات في عدة مجلات وجرائد جزائرية ومغاربية[12]. وبقي يتنقل بين المناصب الإدارية ومهنة التدريس في المساجد إلى أن وافته المنية في 18أوت 1915م بعد صراع مع مرض ألمّ به ودفن في مقبرة الحامة[13].

3- ج- أعماله:

كان كثير التأليف ونحن هنا بصدد ذكر بعض أعماله الجليلة التي صبت معظمها في مجال الوعظ والإصلاح:

- الاكتراث في حقوق الإناث سنة 1895م.

- "تنوير الأذهان في الحث على التحرر وحفظ الأبدان" سنة 1896م.

- " إقامة البراهين العظام على نفي التعصب الديني في الإسلام" سنة 1902م[14].

-" مجموع مشتمل على قوانين مفيدة وتنظيمات سديدة" 1902م.

- " عقود الجواهر في حلول الوفد المغربي بالجزائر" سنة 1902م.

- نبذة وجيزة في معنى الدين والفقه وما يتعلق بذلك ويتصل به" سنة 1902م.

- "اللباب في أحكام الزينة واللباس والاحتجاب" سنة 1907م[15].

هذا عن الكتب المطبوعة كما كان له العديد من المؤلفات المخطوطة التي ضاع أغلبها، إضافة إلى مقالاته في جريدة المبشر وجريدة المغرب، كما حاول تحقيق بعض المخطوطات والكتب.

4- إسهامات مصطفى بن الخوجة في الحفاظ على الهوية الوطنية:

لقد خصص مصطفى بن الخوجة الجزائري معظم كتاباته للدفاع عن معالم الهوية الوطنية للمجتمع الجزائري وحفظها من الاندثار، خاصة في ظل السياسات الفرنسية القائمة على الطمس والتشويه. لذلك سعى بن الخوجة من خلال كتاباته وآراءه إلى ترسيخ مقومات الشخصية الجزائرية، ونحن هنا سنتطرق لأهم القضايا التي عالجها من خلال كتاباته وعلى رأسها: قضايا المرأة، إنحرافات رجال الطرق الصوفية والدفاع على الإسلام.

4 أ- إسهامات بن الخوجة في الحفاظ على هوية المرأة الجزائرية:

تبلور فكر مصطفى بن الخوجة في مرحلة حرجة من تاريخ الجزائر المستعمرة، حيث في فترة السبعينات من القرن التاسع عشر إلى مطلع القرن العشرين عاشت الجزائر فترة عصيبة، وعانت من الأزمات والجوائح والمجاعات والكوارث الطبيعية إضافة إلى اشتداد النشاط التبشيري خاصة بعد حلول الكاردينال لافيجري بالجزائر وقيامه بتأسيس تنظيم الآباء والأخوات البيض. جاءت أفكار بن الخوجة مناهضة للسياسة الفرنسية القائمة على التجهيل وإغراق المجتمع في مستنقع الخرافات، وبما أن المرأة هي أصل المجتمع واللبنة الأساسية في تكوينه ارتكز اهتمامه بترقية مكانتها وإرجاعها إلى محيطها الأصلي، خاصة وأنها كانت محورا أساسيا في عملية مسح المقومات.

يعتبر كتاب "الاكتراث في حقوق الإناث" من أهم مؤلفات بن الخوجة التي عُنِيَتْ بالمرأة ومكانتها في المجتمع، وقد قسم حقوق المرأة المسلمة في مؤلفه هذا إلى حقوق معنوية وحقوق مادية. وذلك كرد واضح وصريح عن إدعاءات فرنسا الواهية التي حاولت تسريبها إلى المرأة الجزائرية بأن الإسلام اضطهدها وانتهك حقوقها وهذا في سبيل إحلال الثقافة الفرنسية محل الإسلامية واستعمالها كمدخل للتغلغل في الأوساط الاجتماعية[16].

اعتبر المستشرقون بعض التشريعات على أنها انتقاص من قيمة المرأة وتعدي على حقوقها ومن أمثلة ذلك قضية تعدد الزوجات، التي اعتبرها رئيس الجمعية التاريخية بالجزائر "أدريان بيربروجر" "A. Ber Brugger" مظهرا من مظاهر التوحش واضطهاد المرأة في المجتمع الجزائري المسلم[17]، هذا في رغبة منهم لتأجيج مشاعر المرأة ودفعها للتمرد عن التشريعات الدينية. على الرغم من قلة انتشار ظاهرة التعدد آنذاك وذلك راجع لتأثير الفكر الفرنسي إضافة إلى تردي الأوضاع الاقتصادية للجزائريين التي حالت دون ذلك إلا في حالات نادرة مثل العقم. ولكن مصطفى بن الخوجة عمد التطرق لهذه[18] القضية للفت الانتباه حول حقوق المرأة التي كانت في معظمها معنوية تلخصت في المساواة بين الزوجات، العدل، حسن المصاحبة والإمساك بالمعروف، والحقوق المادية تمثلت في المسكن والنفقة. وهنا أثار انتباه المرأة لقضية جوهرية أن كل تلك الشعارات التي جاء بها الفرنسيون ليس غرضها تحرير المرأة أو منحها حقوقها المهضومة وإنما هي محاولة لذر الرماد في العيون حتى تبتعد عن دينها ولا تتمكن من أداء الأدوار المنوطة بها[19].

ومع نهاية القرن التاسع عشر ازداد نشاط المستشرقين بالجزائر، من خلال دراسة عمق المجتمع وازدهار حركة الترجمة، هذا بغرض خدمة مصالحهم الاستعمارية وتثبيت أقدامهم سياسيا واقتصاديا وفكريا. فكانت الأسرة هي هدفهم لذلك كثرت الدراسات حول الأسرة الجزائرية من خلال مكوناتها وعاداتها وأعرافها، واستطاعوا اختراق خصوصية هذا الفضاء المغلق الخاص بالجزائريين فدرسوا المأكل والمسكن وحتى اللباس. كما حاولوا تسريب النمط الفرنسي في الحياة للجزائريين[20] من خلال تجريد المرأة من حجابها، هذا ما دفع بن الخوجة لتأليف كتاب" اللباب في أحكام الزينة والإحتجاب"، فكان هذا الكتاب إذن رد صريح وواضح منه على السياسة الفرنسية الرامية لسلخ المرأة من أصولها. في هذا الكتاب يفصّل المصلح في لباس وزينة كلا الجنسين على ضوء النصوص الشرعية، ويدعوا للالتزام بها في محاولة منه لدرأ الشبهات ودعوة منه للعودة لأصول المجتمع التي أرادت سلطة الاحتلال اجتثاثها من الجزائريين.

جاء في هذا الكتاب كل ما يخص الزينة واللباس الإسلامي للرجل والمرأة لتبيين أن المجتمع الجزائري منفصل تماما عن فرنسا ولا توجد نقاط تشابه بين الاثنين، كما كانت هذه المبادرة منه إحيائية لبعض العادات التي اندثرت جراء التحولات الاجتماعية في ظل السياسات الاستعمارية الرامية لفرنسة وتنصير الجزائريين الذين يعانون من ويلات الفقر والأوبئة، حتى أجبرت هذه الظروف البعض منهم للانقياد للفرنسيين للخروج من حالة البؤس. هنا يكمن الدور التوعوي الحقيقي للنخبة.

أشار بن الخوجة إلى وجوب الزينة التي تجلب الوقار والهيبة الخالية من التكلف الذي يبعث روح الغيرة والحسد في نفوس الفقراء وغير المقتدرين ماديا، لكي لا يجلب ذلك التفرقة بين اللحمة الواحدة، لذلك تكون زينة المرء دون مبالغة وعدم تجاوز الحدود الشرعية في ذلك، فهي مطلب شرعي محدد[21].

لقد كانت قضية تحرير المرأة المسلمة وتغيير نمط معيشتها وثقافة لباسها من أكثر المواضيع المنتشرة آنذاك في العالم الإسلامي مشرقا ومغربا خاصة بعد صدور كتاب قاسم أمين تحرير المرأة. ونظرا لتأثر الجزائريين بالموجة الثقافية المشرقية، إضافة إلى تضييق الإدارة الفرنسية

على مسلمي الجزائر ممارساتهم الدينية، هذا أثار تخوف المثقفين الذين أدركوا خطورة تسرب هذه الأفكار للمرأة الجزائرية جعل بن الخوجة يؤلف هذا الكتاب للتفصيل في أحكام لباس وزينة المرأة المسلمة وضوابط خروجها[22].

4- ب- إسهامات بن الخوجة في محاربة انحرافات الصوفية:

لعبت سلطة الاحتلال دورا كبيرا في انتشار الأمية على نطاق واسع من خلال مصادرتها للأوقاف التي كانت عصب الحياة الثقافية والممول الأساسي للحياة الدينية. فمع نهاية القرن التاسع عشر تراجع دور المساجد والزوايا في التثقيفي وفتح هذا الباب على مصراعيه للمبتدعة ودعاة الأباطيل، فانتشر الدجل والشعوذة والقبورية... كما كانت إجراءات الإدارة الفرنسية صارمة جدا على الجزائريين في ممارسة طقوسهم الدينية، خاصة بعد قيامهم بالإشراف على الشؤون الدينية، مما ساهم في تراجع دور الفقهاء التوعوي، إضافة إلى أن المستشرقين كانوا بصدد ترجمة أمهات الكتب الدينية لفهم الإسلام لتسهيل عملية السيطرة على المجتمع[23].

في هذا الصدد ألّف بن الخوجة كتابين في الفقه تمثلا في" رسالة في علم الحديث" و كتاب" نبذة وجيزة في معنى الدين والفقه وما يتعلق بذلك ويتصل به". فجاء الأول في أنواع الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وأهم كتب الحديث إضافة إلى تصنيفها حسب مصداقية الراوي والكاتب، وفي الختام تطرق لأنواع الحديث الصحيح[24]. والهدف من ذلك هو تعليم الجزائريين مبادئ دينهم السليمة وسد الذرائع أمام المبتدعة في إسناد أحاديث مغلوطة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

أما الكتاب الثاني نوّه فيه لمصادر التشريع الإسلامي، وأكد على أن تعاليم الإسلام صالحة لكل زمان ومكان. ومن جهة أخرى أوضح أن الدين بريء من البدع والخرافات التي أدخلت عليه، وأن هذه الطقوس مستحدثة لا أصل لها لذلك يجب محاربتها واجتثاثها من المجتمع الغارق في مستنقع الأباطيل[25].

وركز في ذلك على شريحة النساء اللواتي كنّ أكثر تمسكا بمثل هذه الممارسات وهذا راجع لأميتهنّ وعدم تفقههن في أمور الدين. وأنكر هذه السلوكات على من يدعون تمثيلهم للدين من

متصوفة وطرقيين منحرفين الذين احتفوا الاحتيال على الأهالي الذين عانوا من البؤس والفقر والأمراض، فكانوا يرون فيهم البركة ويذهبون إليهم طلبا للرزق والصحة والذرية ويلجئون لهم دون الله. وأرجع بن الخوجة الأمية والجهل هي السبب الأول لانتشار مثل هذه الانحرافات في الأوساط الاجتماعية[26].

تبرز ليونة بن الخوجة في خطابه لمخالفيه من خلال عدم تكفيره للمبتدعة، وإنما كان دائما يؤكد على أن هدفه هو إظهار الحق وإيضاح ما جُهل دون المساس بعقيدة المخالف أو التشكيك في انتمائه الديني. وهذا في محاولة منه لتبيين أخطاء المتصوفة المنحرفون دون إحراجهم لكي يستطيع استمالتهم ويتجنب عدائهم خاصة وأن السواد الأعظم من الجزائريين كانوا أتباع لهم[27].

وعندما لم يجد آذان صاغية لخطابه الإصلاحي الرامي للرجوع لمشرب الهوية الأصلي لم يتراجع عن مهمته وإنما اتخذ من البراهين العقلية والحجج مسلكا لإيصال رسالته. لذلك أشار لمختلف البدع المنتشرة آنذاك ودعا للتدبر فيها وإعمال العقل، وفي هذا دعوة صريحة لمخالفة مبدأ الصوفية" اعتقد ولا تنتقد"، فهو دعا للنقد ومقارنة هذه السلوكات بما ذكر في مصادر التشريع[28].

4- ج- إسهامات بن الخوجة في الدفاع عن إسلام المجتمع الجزائري:

لقد كان موقف الإدارة الفرنسية واضحا وصريحا من الإسلام في الجزائر منذ الوهلة الأولى، حيث تجلى ذلك في مصادرة الأوقاف وتحويل المساجد مراكز العبادة إلى ثكنات وكاتدرائيات وإسطبلات، هذه الممارسات وغيرها ما هي إلى دليل على أن الحملة الفرنسية على الجزائر هي أحد صفحات الحروب الصليبية.

مع نهاية القرن التاسع عشر تعرض الإسلام لهجمات شرسة من قبل أقلام المستشرقين، لذلك قام المصلحون والمثقفون المسلمون العرب بالرد عليهم ومن هؤلاء جاء رد مصطفى بن الخوجة في كتابه

"إقامة البراهين العظام على نفي التعصب الديني في الإسلام" ليفسر للمستشرقين الوجه الحقيقي للإسلام، وينفي عنه ما ابتدعه المتصوفة والطرقيين.

أرجع بن الخوجة سبب انتشار الكتابات المعادية للإسلام لسوء فهم الأوروبيين للإسلام الصحيح، لأنهم اعتبروا تصرفات بعض من يدعون الإسلام ممثلة له خاصة وأن هؤلاء(الطرقيون) كانوا يرغبون في الظهور هذا ما جعلهم يهاجمون كل مخالف لهم في العرق واللغة والعقيدة. حيث أنه دعا لضرورة التعايش السلمي بين الجزائريين والفرنسيين، لأن التعصب هو أساس الشقاق وسبب حرمان الأهالي من التطور الذي وصلت إليه فرنسا المتحضرة[29]. وكنتيجة لتأليفه لهذا الكتاب اهتزت مكانته لدى الجزائريين وحتى المصلحين المسلمين ومنهم رشيد رضا صاحب المنار، الذي أنكر على بن الخوجة موقفه من الجهاد حيث أن هذا الأخير رأى أنه مما لا طائل منه الجهاد في فترات تقهقر المسلمين لأنه لا يزيد حالهم إلا سوءا ويعرضهم لما ليس لهم قبلة به. اعتبر رشيد رضا أن هذا يصب لصالح إدارة الاحتلال وتصريح بن الخوجة ما هو إلا اندفاع وراء السياسة الفرنسية[30].

إلا أنه برر موقفة على ضوء النصوص الشرعية تدعوا للتعايش السلمي وعدم إكراه الآخر في الدين أو حمل الأحقاد للمخالف له في العقيدة. حيث أنه من خلال هذا الكتاب أظهر الصورة الحضارية التي يدعوا إليها الإسلام، وحدد كيفية التعامل مع أهل الكتاب، وقدم أمثلة كثيرة على تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام عن تعاملهم مع غير المسلمين. كان الغرض من تأليفه البراهين العظام هو توضيح الصورة الضبابية للإسلام في عيون المستشرقين الأوروبيين[31].

وقد ضمّ بين طيات كتابه بعض القضايا الجوهرية اعتبرها المستشرقون مآخذ على الإسلام وصورة من صور التعصب الديني، فقام العلامة بالرد عنهم لتوضيح اللبس في القضية. ومن ذلك إقرار الإسلام للاختلاف العقدي وحرية التدين. كما تطرق لحقوق أهل الذمة في دار الإسلام، إضافة إلى قضية الجهاد التي اعتبروها من أوجه التعصب في حين اعتبرها وجها للدفاع عن النفس ودرأ الخطر. وقدم لهم نماذج من حروب الفتح التي تمثل درسا في التسامح الديني والحفاظ على حقوق الآخرين[32].

خاتمة:

من خلال تطرقنا لإسهامات العلامة المصلح مصطفى بن الخوجة في الحفاظ على الهوية الوطنية نخلص إلى عدة استنتاجات نجملها فيما يلي:

- تفطن بن الخوجة للخطر الذي يهدد هوية المجتمع من خلال المرأة التي تعد الدعامة الأساسية في البناء الاجتماعي، لذلك عمد من خلال كتبه لتبيين حدود المرأة وحقوقها وواجباتها. وأولى قضاياها اهتماما بالغا خاصة وأن المرأة الجزائرية كانت تتعرض لمحاولات الدمج والتنصير والتحرر، خاصة في ظل المتغيرات الحاصلة والجهل الذي السائد من جراء السياسة الاستعمارية.

- لطالما اعتبرت الزوايا والطرق الصوفية سيفا ذو حدين من حيث نشاطها ودورها الاجتماعي، فهي تعتبر الراعي الأساسي للحياة الثقافية والعلمية وكانت تحارب الخرافات والأباطيل، ولكن في بعض الفترات حادت عن مسارها الصحيح واستغل بعض شيوخ الطرق الصوفية المنحرفة نفوذهم الروحي لإغراق المجتمع في البدع والانحرافات هذا ما جعل من بن الخوخة يتوجه لهم في خطابه لإصلاحهم ولتوعية الأهالي من ممارساتهم الخاطئة البعيدة عن الدين والعرف والإطار العام للمجتمع الجزائري.

- إن المتصفح لكتب بن الخوجة يلاحظ طريقة خطابه اللين للفرنسيين هذا ما وضعه محط شبهات لدى المثقفين الجزائريين والمسلمين خاصة وأنه موظف في الإدارة الفرنسية، لكن هدفه الذي لطالما ركز عليه هو عدم الدخول في مشاحنات مع السلطة حتى لا تمنع كتبه من الانتشار لأنه كان يروم لإخراج المجتمع من قوقعة الجهل والتدجين في ظل المتغيرات السياسية.

- كان بن الخوجة من المصلحين الأوائل لذلك آثر عدم اصطدامه مع السلطة، خاصة وأنه ظهر في مرحلة تاريخية حرجة، وقد كانت الرقابة مفروضة على كل الأقلام التي لها أثر في نفوس الجزائريين داخليا وخارجيا. فكان منهجه في إصلاح أحوال المجتمع المتفاقمة قائم على عدم معاداة الفرنسيين.

- سوّقت الطرق الصوفية المنحرفة صورة مشوه عن الإسلام، لذلك قام المستشرقون لشن حملة دعائية شرسة في كتاباتهم. فما كان من مصلحنا إلا التعريف بجوهر الدين وتبرئته من كل ما نسب إليه.

- تعتبر مقومات الهوية الوطنية قائمة على أساسين هما؛ العروبة والإسلام، إلا أن القضايا الدينية أخذت حيزا كبيرا من اهتمام بن الخوجة، وهذا راجع لاشتداد حملة التنصير وبعد الجزائريين عن الفهم السليم لدينهم آنذاك خاصة بعد تأسيس الجامعة الجزائرية واشتداد نشاط المستشرقين حول الأنثربولوجيا الدينية أمثال إدموند دوتي، ألفرد بال، هنري باسي...الخ. الذين عملوا على تشويه صورة الإسلام من خلال دراساتهم.

الهوامش:

1) [1]: يحي بوعزيز: دور الطلبة الجزائريون في ثورة التحرير(1954- 1962)، الملتقى الوطني الثاني لتاريخ الثورة، مج.2، المنظمة الوطنية للمجاهدين، 1984، ص. 348.

2) 2: عبد القادر حلوش: سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، دار الأمة، الجزائر، 1999، ص. 213.

3) [3] : الطاهر العمري: النخبة الوطنية الجزائرية ومشروع المجتمع(1900- 1940)، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2003- 2004، ص. 230.

4) [4]: أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية (1900- 1930)، ج.2، ط.4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992، ص. 160.

5) [5] : يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص. 348.

6) [6] : محمد الكوخي: سؤال الهوية في شمال إفريقيا، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2013، ص. 361.

7) [7]: علي تابليت: فرحات عباس رجل الدولة، ط.2، دار ثالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص. 36.

8) [8]: عادل النويهض: معجم أعلام الجزائر، من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، ط.2، بيروت، لبنان، 1980، ص. 130.

9) [9]: عبد الرحمان بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج.4، دار الثقافة للنشر، ط.4، بيروت، لبنان، 1980، ص. 449.

10) [10]: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج.3، ط.1،دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص. 95.

11) [11] : أبو عمران وآخرون: معجم أعلام المشاهير المغاربة،منشورات دحلب، ص. 170.

12) [12]: الزبير سيف الإسلام: رواد الصحافة الجزائرية، دار الشعب، ط.1، القاهرة، مصر، 1981، ص. 178.

13) [13]: عبد الرحمان الجيلالي: المرجع السابق، ص. 450.

14) [14] : أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج.7، المرجع السابق، ص. 164.

15) [15]: محمد بن مصطفى بن الخوجة: رسالة في علم الحديث، إش: عبد الرحمان دويب، دار المعرفة، ط. خاصة، 2011، ص.9.

16) [16] : سعيدة الدرويش: مشكلة المرأة في الفكر الإسلامي المعاصر، مذكرة ماجيستير، كلية أصول الدين والشريعة، جامعة الأمير، قسنطينة، الجزائر، ص. 142.

17) [17] : A. Ber Brugger : La Polygamie Musulmane ses causes et le moyen de la détruire, R.A, V. 3, A. 1858, P.254.0

18) [18]: محمد بن مصطفى بن الخوجة: الاكتراث في حقوق الإناث، إش: محمد شايب الشريف، ط. خاصة، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص. 41.

19) [19]: محمد بن مصطفى بن الخوجة: الاكتراث في حقوق الإناث، مطبعة بيار فونتانا وشركائه، 1895، الجزائر، ص. 07.

20) [20]: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج.6، المرجع السابق، ص. 12.

21) [21]: محمد بن مصطفى بن الخوجة: اللباب في أحكام الزينة والاحتجاب، إش: عبد الرحمان دويب، ط. خاصة،دار المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص. 25.

22) [22]: سعيدة درويش: المرجع السابق، ص. 164.

23) [23]: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج.7، ص. 107.

24) [24]: محمد بن مصطفى بن الخوجة: رسالة في علم الحديث، المصدر السابق، ص. 25-30.

25) [25] : محمد بن مصطفى بن الخوجة: نبذة وجيزة في معنى الدين والفقه وما يتعلق بذلك ويتصل به، مطبعة الثعالبية، الجزائر، 1902، ص. 10-12.

26) [26]: محمد بن مصطفى بن الخوجة، الاكتراث في حقوق الإناث، المصدر السابق، ص. 128.

27) [27]: محمد بن مصطفى بن الخوجة: نبذة وجيزة في معنى الدين والفقه وما يتعلق بذلك ويتصل به، المصدر السابق، ص.6.

28) [28]: نفسه، ص.7.

29) [29]: محمد بن مصطفى بن الخوجة: إقامة البراهين العظام في نفي التعصب الديني في الإسلام، إش: عبد الرحمان دويب، ط. خاصة ، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص. 18.

30) [30] : عبد الرحمان بن محمد الجيلالي: المرجع السابق، ج. 5، ص. 322.

31) [31] : محمد بن مصطفى بن الخوجة: إقامة البراهين العظام في نفي التعصب الديني في الإسلام ، المصدر السابق، ص. 50، 51.

32) [32]: نفسه، ص.50، 51، 54، 65.